

ملخص بالعربية:

منذ ظهور جمعية حركة الإصلاح في الجزائر في مطلع القرن العشرين، وهي تحاول جاهدة بكل ما توفر لديها من وسائل لبث صحوة و نهضة متعددة الجوانب في المجتمع الجزائري، و كانت قضايا الإصلاح الديني و الاجتماعي المتعلقة بالمرأة الجزائرية تمثل الركيزة الأساسية في هذه النهضة الإصلاحية الشاملة؛ فقد اهتمت الجمعية الإصلاحية في الجزائر بقضايا المرأة الاجتماعية والثقافية والدينية، و شغلت حيزا واسعا في كتابات الفكر الإصلاحي الجزائري خلال فترة الاحتلال، وتجلّى ذلك الاهتمام واضحا في كتابات و أدبيات الجمعية، إدراكا ووعيا منها بدور رسالتها النهضوية في المجتمع، حيث لم يكتف الكتاب و الشعراء بعرض هذه القضايا الدينية والاجتماعية التي تعكس مدى الانحراف الفكري والسلوكي الذي طال عقيدة المرأة في تصرفاتها و تفكيرها، بل راحوا يبحثون عن الأسباب التي تقف وراءها، واقتراح بعض الحلول الممكنة لحل مثل هذه الظواهر السلبية، وذلك بمحاربة البدع و الخرافات التي ضللت عقول العامة من الرجال والنساء، والدعوة إلى تعليم المرأة تعليما يحفظ لها دينها وعفتها وقوميتها على حد تعبير ابن باديس مما يجعلها تعود إلى أصول الدين الاسلامي الصحيح عقيدة وسلوكا تحقيقا للهدف الاصلاحي الشامل الذي سطرته الجمعية.

الكلمات المفتاحية: الإصلاح الديني/ المرأة الجزائرية و الإصلاح / المرأة في كتابات جمعية العلماء.

ملخص بالانجليزية:

Since the emergence of the Association of the reform movement in Algeria in the twentieth century, and is trying hard to provide all means to create a revival and a multi-faceted rise in Algerian society, and the issues of religious and social reform related to Algerian women are the cornerstone of this comprehensive reform renaissance. The reformist society in Algeria took care of women's social, cultural and religious issues and occupied a large part in the writings of Algerian reformist thought during the period of the occupation. This attention was evident in the writings and literature of the society, consciously aware of the role of its Renaissance message in society. The writers and poets presented these religious and social issues that reflect the extent of the intellectual and behavioral deviation that has persisted in women's behavior and thinking. They also sought the reasons behind them and proposed some solutions to such negative phenomena by fighting fads and superstitions that mislead the public minds. Men and women, and calling for the education of women educated to preserve their religion and nationality in the words of Ibn Badis, which makes them revert to the fundamentals of the Islamic religion correct doctrine and conduct to achieve the comprehensive reform goal set by the Assembly of OULAMAS.

Keywords : Religious Reform / Algerian Women and Reform / Women in the writings of the Association of OULAMAS.

المرأة والإصلاح الديني في كتابات جمعية

العلماء المسلمين الجزائريين

د. عجنالك (زوجة بشي) يمينة.

أستاذة محاضرة بقسم اللغة العربية

وآدابها، جامعة الجزائر2.

مقدمة:

كان لميلاد فكرة الإصلاح التي بدأت شمسها تشرق على الجزائر في مطلع القرن العشرين، الأثر البالغ في حياة الفرد الجزائري، الذي كان غارقا في بحر التخلف والجهل تحت حكم استعماري جائر. وقد كان لظهور هذه الفكرة قبل¹ وغداة الحرب العالمية الأولى أن قلبت في هذا الوطن المعطيات الدينية التقليدية الجامدة التي كان يمثلها رجال الطريقة المنحرفة، وأقر عبد الحميد ابن باديس رائد الإصلاح الإسلامي في الجزائر بهذه الحقيقة في قوله: " قبل ظهور الإصلاح لا أحد كان يعتقد أن الإسلام هو شيء آخر غير الطريقة²..." وقد اتخذ المصلحون من القرآن الكريم، والسنة الصحيحة منطلقا لدعوتهم الإصلاحية. وكان هدفهم العودة بالجزائريين إلى الدين الصحيح سلوكا وعقيدة، ونتج هذا التصور بعد أن نضجت الرؤية وتأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في مايو من سنة 1931 بقيادة الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس، وكان على عاتق هذه الجمعية الإصلاحية إخراج الأمة مما كانت فيه إلى حياة جديدة، وقد أوضح القانون الأساسي³ لهذه الجمعية أن هدفها هو الإصلاح الديني⁴ بمعناه الشامل.

أ - المرأة والطريقة المنحرفة: لقد كان لسيطرة الفكر الطرقي المشعوذ أثره البالغ في توجيه تفكير وسلوك أفراد المجتمع الجزائري عامة والمرأة -خاصة - فهي أكثرها اعتقادا وتشيعا لهم، وهذا راجع لطبيعتها الساذجة، ولجهلها خاصة بأصول الدين⁵، ذلك لأنها نشأت على الاعتقاد بالخرافات والأباطيل التي أصبحت بفعل الزمن في تصورهم جزءا من الدين، مما جعل إيمانها يشبه إيمان العجائز على حد تعبير توفيق المدني. فحتى غداة الحرب العالمية الأولى كانت القوة الدينية المتكونة من الطرقيين هي المسيطرة في الجزائر، وقد أقر بذلك الإمام عبد الحميد ابن باديس رائد الإصلاح الإسلامي في الجزائر بقوله: " قبل ظهور الإصلاح لا أحد كان يعتقد أن الإسلام هو شيء آخر غير الطريقة⁶ وقد كان لهؤلاء الطرقيين وزواياهم⁷ المتعددة الأثر البالغ في النفوس و العقول"، مما جعل الشيخ الإبراهيمي يؤكد بل ويجزم: "أنه لا يتم في الأمة إصلاح في أي فرع من فروع الحياة مع وجود هذه الطريقة المشؤمة، ومالها من سلطان على الأرواح والأبدان، ومع ما فيها متن إفساد للعقول وقتل للمواهب ..."⁸.

وقد أدى هذا التطرف في الانحراف الديني من قبل الطرفين إلى رد فعل قوي أيضا في الهجوم عليهم من قبل الإصلاحيين، ذلك ما سجلته لنا -وبأمانة - القصائد والمقالات⁹ الإصلاحية التي كانت عبارة عن منبر لمعارك قلمية بينهم وبين الطرفين، إذ كانت تتابع كل صغيرة وكبيرة، وتذيع بل وتفضح أعمال الطرفين الذين انحرفوا عن الدين الصحيح وكانوا السبب في تخدير وتضليل العامة من الناس رجالا ونساء.

وهكذا أصبحت المرأة الجزائرية أداة طيعة في أيدي هؤلاء المشعوذين، فهي لطلباتهم، ولا تستطيع أن ترفض لهم طلبا، هذا السلوك المنحرف أدى إلى إثارة غضب وسخط المصلحين، ومن جملتهم نجد الكاتب المصلح السعيد الزواوي¹⁰ الذي لم يتوان عن الإعراب عن سخطه الشديد إزاء ظاهرة الانحراف الديني لدى المرأة الجزائرية واتخاذ نوقف صارم إزاء هذه الوضعية في قوله: "والذي أحجب عن النساء لي قوة، أو آوى إلى ركن شديد، هو المنكرات من الزيارات، والطواف حول القبور، والعكوف عند قبب الأولياء والشكوى إليهم، والاستغاثة بهم، والطلب منهم، حتى صرن يزرن الكنائس مثل "سيدتنا الإفريقية" NOTRE DAME D'AFRIQUE¹¹ وينذرن لها...¹².

وإذا رجعنا إلى موقف الشعراء الإصلاحيين من القضية وهي انحراف العقيدة لدى المرأة -خاصة - فإننا نجدهم أكثر سخطا وتشاؤما من الكاتب السعيد الزواوي نفسه، وإذ راح هؤلاء يصفون ويتتبعون هذه الظاهرة السلبية في المجتمع، كاشفين عن أعمال هؤلاء المشعوذين وعن البدع الممقوتة¹³ التي اختلقوها ونسبوها إلى الدين ووصفوا "الزردات" والمهرجانات التي يقيمونها في المساجد رجالا ونساء وهذا باسم الدين دائما وهو براء منها، ذلك ما نجده في قصيدة¹⁴ الطيب العقبي المعروف باتجاهه الإصلاحي، وملاحقته لهؤلاء المشعوذين في محاضراته، وقصائده التي يهجو فيها هؤلاء المشعوذين والبدع التي استحدثوها في الدين وفي ذلك يقول:

وقد أحدثوا في الدين أكبر بدعة	بطرفهم أيان تمشي وتصبر
وهل أبصرت عيناك دينا كدينهم	دفوف، وألحان، وشيخ يزمر
وجمع رجال مع نساء وكلهم	على سر ذاك الدين قد بات يسهر
وكم أمرد غنى لهم فتساقطوا	على صوته صرعى هوى قد تحيروا ¹⁵

ولم يقتصر دور الشاعر الإصلاحي على وصف هذه السلبية التي انتشرت في المجتمع الجزائري لكن رسالته كانت أبعد من هذا بكثير، فكثير من الشعراء الإصلاحيين تجدهم يكشفون عن الداء الاجتماعي، ويحاولون البحث عن الدواء أو الحل لهذه المعضلة ومن بينهم نجد الشاعر محمد العلمي الذي كشف عن ظاهرة الانحراف الديني، وراح يبحث عن السبب الذي أودى بالناس إلى الدرك الأسفل في الانحطاط الديني، ولم يجد تفسيراً لهذه الظاهرة سوى الجهل الذي أطبق على العقول، وغشي الأبصار والبصائر وفي نظر الشاعر ليس هناك حل لهذه المعضلة

سوى العلم الذي يدفع بالأمم إلى الرقي والتقدم، إلا أنّ الشاعر قد عبّر عن هذه الأفكار كلها بنبرة خطابية حرصا منه على إيصال الفكرة إلى الجمهور بلغة تقريرية مباشرة ، مسجلا هذه الظاهرة بكل حسرة وأسى قائلا:

كنت أرجو من أناس زجرهم	كي يكفوا عن موالاة البدع
خاب ظني ورأيت القوم قد	بعدوا عن كل أمر مشتع
كم رجال، و نساء حولهم	لدفوف و طبول تستمع
كم غيور في عناء ولظى	وعدو ما تمنى قد وقع
...إلى أن يصل إلى تحديد سبب هذه المعضلة، والحل اللازم لها في قوله:	
غيرنا قد طار في الجو وها	نحن في الرقص حيارى نندفع
غيرنا قد حاز مفتاح الغنا	ونحن في بؤس ويأس وهلع
قد سألنا الدهر عن أدوائنا	فوجدنا الداء من الجهل نبع ¹⁶

ومن الشعراء الإصلاحيين الذين وصفوا مظاهر الانحراف الديني في سلوك المرأة الجزائرية فكشفوا عما يجري في حضرة " الشيخ " -عند زيارته- من مفارقات اجتماعية عجيبة إذ يلاحظ الشاعر عبد الطاهر عبد السلام في قصيدته "الزائرات في حضرة صاحب الطريقة !! " مدى أهمية الزيارة التي تستعد لها المرأة وهي في كامل زينتها، فيستغل الشاعر هذا الموقف ليصف جمالها وإعجابه به، وفي الوقت نفسه غير مخف سخطه وتهجمه على صاحب الطريقة الذي يحظى به دون غيره قائلا:

ويأتيه كل الغانيات يزرنه	بأفخر ملبوس وأحسن زينة
بوجه جميل مشرق ذي تور	وطرف كحيل ذي فتور وفتنة
وقد كغصن البان يبدي تمايلا	كسى من لباس العصر أجمل حلة
وتبسم عن ثغر لئالئه بدت	منضدة تسبي لأول نظرة ¹⁷

ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل يتخذ الشاعر الإصلاحي موقفا واضحا مما يجري في زيارة حضرة الشيخ في غفلة من المجتمع وهذا في أسلوب يغلب عليه طابع الخطابية، والاستنكار الشديد إذ يقول:

يبيت يطوف بين هذى، وهذه	وكل إليه ذات سمع و طاعة
ويصطاد ريم الإنس من دون ما عنا	ولا بذل مال أو لحوق معرة
ولا خوف واش أو رقيب، وإنما	يزدن له مالا وكل كرامة
فيا عجبا للريم كيف تأنست ؟	وقد كان ريم الأنس صاحب (نفرة)
ويا عجبا للحرس كيف تغافلوا	ويا عجبا للزوج أعمى البصيرة ¹⁸

كما يجسد الشاعر الطاهر عبد السلام عبر هذه التساؤلات موقفه الراض لمثل هذا الانحراف الخطير، فهو ساخط على المرأة والزوج، وعلى المجتمع عامة الذي رغم محافظته لا يضع حدا لهذا العبث ولمثل هذه الظواهر السلبية.

ويكشف الشاعر محمد السعيد الزاهري المعروف بجرائته رجال الطرقية، ليضيف إلى مواقف الشعراء السابقة موقفا أكثر حساسية، ليثير قضية العرض، والشرف، الذي أصبح وسيلة للتقرب من "الشيخ" رجاء نيل رضاه وبركاته.

ويكشف من خلال قصيدته "إلى زعيم المصلحين" التناقضات الصارخة والعجيبة في المجتمع والتي لا يحكمها العقل ولا المنطق، وينقل ذلك التناقض الاجتماعي الذي لا نجد له تفسيراً مقنعاً، فهو يتعجب كيف تمنع المرأة من الخروج ويغلق عليها حتى وهي محتجبة في البيت ويحضر عليها التعرف على الغير، ولكن في الوقت ذاته يتجاوز العرف الاجتماعي عن تصرفاتها وإن تعدت حدود الدين والتقاليد والآداب العامة " مع حضرة الشيخ " فهو وحسب الاعتقاد - محل ورع وتقوى يسوق الشاعر هذه الأفكار بسخرية وبتهكم شديدين محاولاً تجسيد هذه المفارقات الاجتماعية العجيبة في قوله:

عجا لقوم يحجبون نساءهم	عن كل ذي عين، وذو لحظات
وعن الكواكب والنسيم وماله	في الفجر من جري ومن خطرات
و رأيت منهم من يبيح لشيخة	ما كان من زوج له وبنات ²⁰

إلى أن يصل إلى فضح هؤلاء " المشايخ " دون تردد أو خوف فيصف ما يجري من انحراف في موقف يثير السخط، والتعجب فيقول:

وربما زار النساء (مرباطا)	وقد جئنه لتطلب البركات !
فينال مليطنه ! وينلن ما	ينوينه لكن على " النيات "
فيعدن في فرح على ما حصلنه	من فيضه من سائر الحاجات !
وعفيفة هتاك (المرباط) عرضها	وتظن ذلك القربات !
فتظل تفخر في النساء بأنّها	ظفرت من الأيام بالرغبات
هذا " التصوف " عندهن وهذه	آثار (علم القوم) و(السادات)
مات الرجال، فلم تعد من غيرة	له على الأزواج والحرمان ¹⁹

من خلال مبحث " المرأة و الطرقية المنحرفة " يتبين لنا مدى الصراع الذي كان قائماً بين رجال الإصلاح، والطرقية المنحرفة، وكان من أهم المواضيع التي شغلت الصحافة²¹ الإصلاحية شعراً ونثراً مدة عشرين سنة على الأقل ما بين (1925 و 1945م). إذ عبّر الكاتب والشاعر الإصلاحية من خلال أدبيات جمعية العلماء عن موقفهم الراض لانحراف المرأة في عقيدتها، والساخط على رجال الطرقية المنحرفة ومن لف لفهم من الذين يهرجون بالدين، ويستحلون الأعراض، وينهبون أموال العامة باسم الدين وتحت غطاءه. كما يتضح أنّ رؤية

الشعراء الإصلاحيين كانت متشابهة تقريبا في تناولهم هذا الموضوع من حيث الفكرة والأسلوب والأدوات الفنية، بحيث أنّ معظم هذه اللصوص الشعرية جاء أسلوبها مباشرا يغلب عليه طابع الخطابة والوعظ الذي كان يفرضه الموقف الإصلاحي في أغلب الأحيان، إلا أنّ قيمتها تبقى فيما تحمله من مواقف إصلاحية وآراء حول قضايا المجتمع الجزائري في فترة الاحتلال.

(ب). المرأة والتنصير: لقد واجهت حركة الإصلاح في الجزائر منذ قيامها أعتى قوى البغي والكيد، المتمثلة في المسيحية الحاقدة على الإسلام، والاستعمار الذي يرى فيه العقبة في طريقه نحو تأييد وجوده في هذا الوطن²². ومنذ تواجده في الجزائر كانت كل مساعيه تهدف إلى تغيير معالم ومقومات الشخصية الجزائرية، وهذا طبعاً باستخدام كل الوسائل الكفيلة بتحقيق الغرض. وكان من بين هذه الوسائل المقوضة للشخصية الجزائرية المسلمة وسيلة التنصير التي وفّر لها المستعمر كل ظروف النجاح والانتشار من بينها فتح المستعمر المدارس للبنات المسلمات، وجعل همه الأكبر إفساد عقائدهن، وتحقير الإسلام والعربية إليهن، وتجريدهن من شخصيتهم الإسلامية³² بالإضافة إلى هذا الاهتمام الخاص الذي أولاه المبشرون بالمرأة الجزائرية لاعتبارها "مدار الحياة الاجتماعية"، والوصول بالتبشير إليها وصولاً إلى الأسرة كلها...²⁴، ولخطورة دورها في الأسرة يرى بعضهم أنّ الأثر الذي تحدثه الأم في أطفالها -ذكورا وإناثا- حتى السنة العاشرة من عمرهم بالغ الأهمية، وبما أنّ النساء هن العنصر المحافظ في الدفاع عن العقيدة، فإننا نعتقد أنّ الهيئات التبشيرية يجب أن تؤكد جانب العمل بين النساء المسلمات على أنه وسيلة مهمة في التعجيل بتنصير البلاد الإسلامية...²⁵.

وقد تبلورت هذه النشاطات بوضوح وبصفة رسمية في مؤتمر انعقد بقسنطينة وقد نص على: " أنّ الحاجة الملحة والمستعجلة إنما هي إنشاء بيت أو بيوت للفتيات المطلقات وللأرامل الصغار، ويجب أن لا تكون هذه البيوت مؤسسات كبيرة، بل أماكن يخيم عليها الجو العائلي، ثم نفرق النساء حسب أحوالهن وحاجاتهن ... وأخيراً نرى أنّ أمثال هؤلاء النسوة يكنّ في أثناء مكثهن في هذه البيوت تحت تأثير الإنجيل، ثم إنّنا نختار منهن أولئك اللواتي يرجى أن يمرن أكثر من سواهن ليكون بدورهن مبشرات بين قومهن..."²⁶.

يلاحظ من خلال هذا الاعتراف الصريح مدى استغلال المبشرين الظروف الصعبة التي مرت بها المرأة الجزائرية من فقر واحتياج لتحقيق أهدافهم، وهذا بالنظر بالاهتمام بهذه الفئات المحرومة والمشردة، وذلك بتوزيع بعض المؤن عليهم حتى يصلوا إلى نفوسهم بسلوك الحيلة²⁷. وهكذا أخذ المبشرون يتصيدون أولئك الفقراء المعوزين بفعل سياسة التفتير، حيث وجدوا أنفسهم مضطرين بحكم تنازع البقاء في أيدي أولئك اللصوص المنظمين المتمدنين ولو أنهم ممن أرسلوا لخدمة الإنسان حقيقة لما اتخذوا صفات البرّ والإحسان والتهديب مطية لإرضاء أطماعهم²⁸.

وإزاء هذه الظاهرة السلبية التي تمس عقيدة الجزائريين سواء كانوا رجالاً أم نساء، يقف الشاعر الإصلاحى لها بالمرصاد كشفاً وتعريّة.

نجد أن موقف الشاعر الإصلاحى واضحاً وصريحاً من هذه القضية؛ فهذا الشاعر محمد العيد السبّاق لكل ماله علاقة بعقيدة وقضايا المجتمع الجزائرى بالطرح والمناقشة يطرح فى قصيدته " تحية الشبيبة" التى كتبها فى الثلاثينيات من القرن الماضى، صورة المجتمع الجزائرى، والظواهر الاجتماعية السلبية التى انتشرت فيه بفعل عوامل وأسباب كثيرة أدت إلى بروز مثل هذه الانحرافات. وباعتباره شاعراً إصلاحياً بالدرجة الأولى فإنّ هذه الانحرافات الاجتماعية تجعله قلقاً على مستقبل هذه الأمة باحثاً عن كيفية معالجة هذه المشاكل، وإيجاد حلول تجعلها تتناسب طبيعة المجتمع الجزائرى المسلم.

إن الشاعر محمد العيد يتألم ويتحسر للوضع الذى آلت إليه فتاة الجزائر فهى إما مشردة فى الشوارع لا كافل لها ، وإما تعمل فى بيوت الكولون من دون كرامة، تعامل معاملة غير إنسانية، وإما تجدها لدى " الآباء البيض" تحتمى بهم فى أديرتهم من التشرّد مقابل قبولها تعاليم النصرانية يورد الشاعر هذه المعانى فى أسلوب تقريرى مباشر وهو يصف هذه الصورة الاجتماعية المزرىة التى تنقطر لها القلوب فى قوله:

غور أحوالها بعين وأذن	قف معى بالجزائر اليوم واسبر
والفتى يشرب الخمر ويزنى	تجد الطفل فى الأزقة يلهو
تحت خدر تنوء أو تحت خدن	تجد الطفلة اليتيمة تشقى
أكرمتها يد المسيح بحضن ²⁹	أو لدى " البيض " نصروها وقالوا

إلا أنّ الشاعر محمد العيد لم يكتف برصد هذه الظواهر السلبية فى المجتمع فحسب بل راح يبحث عن الأسباب والحلول؛ فالظاهرة التى انتشرت فى المجتمع الجزائرى وجعلت المرأة أو الفتاة تلجأ إلى هذه الأديرة -حسب وجهة نظر الشاعر- ليس حبا فيها أو اعتقاداً بها، وإنما احتمالاً بها فقط من العالم الخارجى المتوحش الذى لا يرحم الفقير ولا اليتيم، والسبب يرجع إلى انعدام التضامن والتكافل الاجتماعى الذى نص عليه كتاب الله وسنة رسوله بين أفراد المجتمع، وكذلك عدم إحساس الرجال بالغيرة على شرف وكرامة المرأة المسلمة بالتكفل بها، أو تزوّجها كحل مناسب يقترحه الشاعر وهذا حماية للفتاة أو للمرأة الجزائرية من خطر التنصير الذى يحرق بها من كل جانب وهذا قوله:

ولو أن الرجال منا رجال	لم يفتها تزوج وتبنى
ما على خرد الجزائر غيرا	ن ولا بحدود الاى معنى ³⁰

أما الشاعر حسن حموتن فيرى سبباً آخر جعل ظاهرة التنصير تنتشر فى المجتمع الجزائرى وخاصة فى منطقة القبائل، وهو ابتعاد وانكماش رجال الدين أو -على حد تعبيره - المرابطين عن الواقع وتركهم الساحة شاغرة أمام المبشرين، وعدم قيامهم بدورهم، وتلقين

العقيدة الصحيحة للناس، فقد اكتفى هؤلاء بالانزواء بعيدا عن الناس والاهتمام بالأمر الشكلي، وبذلك فسحوا المجال للمبشرين الذين أخذوا ينفثون سمومهم وسط أهالي هذه المنطقة المستهدفة بتغيير معالمها الإسلامية وذلك بتكثيف هياكل التنصير فيها، ولم يقتصر الأمر على هذا فحسب بل حاولوا أيضا تغيير أسماء سكان هذه المنطقة من العربية إلى أسماء أعجمية، حتى يعزلوا هذه المنطقة تماما ويضيفوا عليها طابع النصرانية شكلا ومضمونا، ويخلعوا عنها طابعها الإسلامي، وفي ذلك قمة وذروة الخطر الذي حذر منه ونبه إليه الشاعر الإصلاحى واستنكره بشدة ، بل دعا العلامة الشيخ الإبراهيمي لزيارة وتفقد هذه المنطقة لإنقاذها من خطر التنصير حيث يصف حالها قائلا :

طف بالمدائن والقرى	وانثر بهنّ الجوهرا
و اطلع عليها سيدى	في الليل بدرا منيرا
أما زواوى فاغتدت	حيرى تتيه كما ترى
دين الإله قد غدا	فيها يهان ويزدى
وكتاب ربي آية	راحت تباع وتشتري ³¹

وبعد وصفه الوضعية التي آلت إليها هذه المنطقة يوعز إلى السبب في ذلك حسب الشاعر، فإنه يعود إلى انتشار الجهل وعدم قيام "المرابطين" بدورهم في نشر الدين الصحيح، مما أدى إلى هذا الانحراف في العقيدة بسبب التهاون واللامبالاة ، ثم يعطينا وصفا شاملا عن حال هذه المنطقة والأسباب التي أدت إلى هذا الوضع في قوله:

جعل " الم رابط "حظه	منه القشور ومادى
وغدا المبشر ناشطا	وعن السواعد شمرا
ودعا إليه قبائلا	وبنى الكنائس في القرى
طاف القبائل وارتنى	أثوابهم وتبربرا
زار المداشر و القرى	وغزا القلوب ونصرا ³²

إلى أن يصل إلى نتيجة تتمثل في خطر التنصير الذي يدهم هذه المنطقة والذي يهدف إلى تغيير مقومات الشخصية الجزائرية المسلمة التي طالت حتى الأسماء، ولذلك ينبه رجال الحركة الإصلاحية و يدعو الشيخ البشير الإبراهيمي لزيارة مستعجلة لهذه المنطقة في قوله:

ولذا ترى "سعدية "	تدعى "ليا "أو "بربرا" !
وشقيقها "قاسي " غدا	يدعونه أيضا "برا" !
فالشرك بثّ جنوده	وبنى القباب وعسكرا
والجهل مد ظلامه	والكفر هرّ وزمجرا
فمتى تزور بلادنا	لتردّ عنها المنكرا ³³

إن الشاعر قد سجل موقفه الراض لقضية " التنصير " التي أخذت تنتشر في بعض مناطق الجزائر. ولم يسكت عنها بل رصدها وحلل أسبابها، ونبه إلى أخطارها على المجتمع الجزائري المسلم.

كما لوحظ في مختلف النصوص استنكار الشاعر الإصلاح لمثل هذا الانحراف العقائدي ، الذي شجعه المستعمر بكل الوسائل و التأييد³⁴ كما حذر من خطر هذه الوسائل التي توسل بها المبشرون لنشر التنصير بين الجزائريين نساء ورجالا، كما دعا المرابطين إلى العودة إلى التمسك بالدين الصحيح و القيام بدورهم في المجتمع.

ومهما كانت وسائل المستعمر المستخدمة لتقويض معالم الشخصية الوطنية المسلمة من دين ولغة، فإن النتيجة التي مني بها في الجزائر كانت مخزية وهذا ما يؤكد الشاعر عبد الكريم العقون متحدثا عن خطط المستعمر الفاشلة في قوله:

بذل الأموال في تضليلها	زمننا طال فخائنه الظنون
جند " الآباء " للتبشير في	ثكنة الأسد ومهد الصادقين
خاب سعي المفترى في أمة	لم يرحلها سراب المفترين ³⁵

ورغم ما بذله المستعمر مع أعوانه من المبشرين من جهود لتنصير الجزائريين إلا أنها باءت بالفشل الذريع، والسبب على - حدّ تعبير الإبراهيمي - مرده إلى شيء واحد وهو " تصلب الجزائري في دينه، مهما بلغت به العامية، والأمية، والفقر³⁶ .

ج. المرأة والانحراف الأخلاقي: لقد تعرض المجتمع لجزائري بفعل السياسة الاستعمارية لمختلف أنواع الضغوطات والمشاكل الاجتماعية، انجر عنها آثار سلبية على الرجل والمرأة على حد سواء. إلا أنّ المرأة كانت أكثر تأثرا بهذه المشاكل باعتبار حساسيتها الشديدة إزاء كل ما يجري في المجتمع، لذا نجدها أكثر تعرضا للصدمات بفعل هذا العامل النفسي، وبفعل العوامل الخارجية الأخرى أيضا. فالمرأة الجزائرية نتيجة جهلها كانت ضحية في أيدي المشعوذين والمنصرين، بالإضافة إلى هذا فهي ضحية العابثين واللاهين الذين اتخذوا منها وسيلة سهلة لتزجية أوقات فراغهم، وشجعوها بذلك على الانحراف مستغلين في ذلك ضعفها وبؤسها الاجتماعي، فاتخذوها مطية لنشر الفساد والرذيلة في المجتمع الجزائري، وكل هذا برعاية وتشجيع الحكم الاستعماري الذي فسح المجال لنشر دور الدعارة كالوباء في كل حي دون مراعاة لحرمة الأوساط العائلية الشريفة، ولا احترام لقدسية الأماكن الطاهرة³⁷، كما كانت الحكومة الاستعمارية تلاحق من تدفعه غيرته الدينية للدفاع عن كرامة العرض وشرف النسب قضائيا، ويحاكم أمام المجالس العدلية، ويحكم عليه لأنه اعتدى على الحرية...³⁸.

وقد تصدى شعراء وكتاب الإصلاح لهذه الظاهرة الاجتماعية الخطيرة التي انتشرت في المجتمع الجزائري بالكتابة عن أضرار هذه الآفة في المجتمع، وليس هذا فحسب بل كان الشاعر الإصلاح دوما يبحث عن البواعث النفسية والاجتماعية التي أدت إلى هذا الانحراف حتى

يصل إلى حل، أو يهتدي إلى حل وهنا يكمن دور ورسالة الشاعر الإصلاحي الملتزم بقضايا مجتمعه، فهذا الشاعر محمد العيد الذي يعدّ الضمير الحي للأمة التي يعيش فيها فهو يمثل عبر قصيدته "داعي النهوض" الضمير اليقظ لهذا المجتمع الذي لا يغمض له طرف لما يجري في المجتمع من فساد وانحراف.

يصور الشاعر هذه الفئة التي تعيش بعيدا عن المجتمع، في جو الندمان ما بين غيبوبة النفس، وسكرة الكأس، والغادة الحسناء... الخ. و يخاطبهم، بل يأمرهم أن يكفوا عما هم فيه من ضلال قائلا :

قل للذين بحبّ زينب فاخروا	أقرانهم و تناولوا الكاسات
فغدا لهم جمع المفاسد ناديا	يبدون فيه محاسن الغادات
حيث الفواحش و العوائق علقت	راياتها في سائر الأوقات
حيث المدامة بالفقاع كشكت	ومناول الكاسات يصرخ هات
إلى أن يقول :	

....(هذا) وذاك بقربه ووصاله	من حبه في أحسن الحالات
قد مال عجا، وافتخارا واحتسى	كأسا، فكأسا فهو في سكرات
ويقول أي يوم ، ويوم لم أبت	في تلكم الديار و الغرفات
والكل في لهو، و شغل دائم	دفّ ومزمار، وشر فتاة ³⁹

ومحمد العيد بوصفه شاعرا إصلاحيا لا ينتهي دوره عند نقل هذه الصور ومظاهر الانحراف بل يختم النص بالتنبيه والتحذير الذي يحدق بالمجتمع إذا ما استفحلت هذه الظواهر فيه فهو مهذّب بالزوال، فالحضارة والتقدم ليسا في التعلق بالمظاهر الزائفة ، كما أنها ليست في اللهو والانحطاط الأخلاقي ويجمل ذلك في قوله:

لا تحسبوا أنّ البلاء مغفل	عن تلكم الأعمال و الفعلات
لا تحسبوا أنّ التمدنّ لبسكم	خزا و صرف المال في الذات ⁴⁰

ولم يقتصر الانحراف السلوكي أو الأخلاقي على الرجال فقط بل شمل المرأة أيضا، ففي صور محمد العيد نجد أن دور اللهو والفساد تضم الجنسين معا. كما يؤكد الشاعر ذلك في قصيدة أخرى "ويخلد الإسلام" أنّ هذه الملاهي المنتشرة، والمشجعة من طرف المعمرين، والمستعمر نفسه أدى إلى تشجيع الانحراف و بروز "صور" لا تمت إلى المجتمع الجزائري المسلم بصلة، ولا ينسى طبعا بعض الأغنياء أصحاب "القصور والفيلات" الذين شجعوا مثل هذه الظواهر مشيرا إليهم بأسلوب مباشر لا غموض فيه في قوله :

هذه الدّور جلّها تهتك الأعم	راض فيها وتقطع الأرحام
و الملاهي مذاعة تعلن الأف	واه عنها وتكتب الأقلام
والبغايا طليقة يفتن الشـ	خ باغوائها ويغري الغلام ⁴¹

بالإضافة إلى هذه النصوص التي تصور انحراف المرأة و ارتيادها مثل هذه الأماكن، نجد الشاعر محمد العيد في قصيدة أخرى بعنوان "فتاة العصر!" ينحى باللوم فيها على أدب وسلوك الفتاة الجزائرية الذي لاحظ عليه الشاعر أنه قد انحرف، وأنها بتصرفاتها تلك المقلدة للغير تكون قد خرجت عن عاداتها وتقاليدها وتعاليم دينها الذي حفظ لها كرامتها، ومكانتها في المجتمع، وهنا يشير إلى الفئة التي تبنت فكرة التقدم، والتحضر على النمط الغربي منسلخة عن قيمها في قوله متسائلاً:

ما بال سير فتاة العصر منحرفا	يهوي بها في مهاوي الإفك والزور
إنّ الجزائر أمست بنتها غرضاً	لكل رام بسهم الغي مأجور
ما بالها هجرت آداب ملتها	ما بالها أعرضت عن خير دستور؟
إنّ الذي برأ الجنسيتين خوّلها	حقوقها في كتاب منه مسطور
أو أنّها اقتبست من نوره وجنت	من روضه التحقت في الطهر بالخور
ما جلّ أرائها المستحدثات سوى	مستوردات مداها غير مشكور
في كل مرحلة تزداد ظلمتها	في الرأي! فافراً عليها سور النور ⁴²

ولا يكتفي الشاعر باللوم على الفتاة الجزائرية، والتساؤل عن سبب خروجها عن تعاليم القرآن الكريم، و يدعوها إلى الرجوع إليه و السير على نهجه.

وهناك عامل آخر يعد سببا في فساد الأخلاق والآداب في المجتمع ويتمثل في زيارة المرأة القبور وأضرحة الأولياء الصالحين، حيث تحدث انحرافات في غفلة عن عيون المجتمع، وهذا ما لاحظته أحد الشعراء⁴³ فكتب عنه قصيدة ينتقد فيها هذه الظاهرة ويدعو فيها رجال الإصلاح إلى اليقظة وهذا في قصيدته المعنوية "إلى رجال الغيرة بالعاصمة"، إذ يستنكر فيها مثل هذه المظاهر الاجتماعية السلبية التي تؤدي بدورها إلى الانحراف؛ وهي اجتماع النساء والرجال معا في المقابر بحجة الزيارة و التبرك ، وهناك بحث مالا ترضاه الضمائر النقية لأنه مكان للعبث، والاتعاض وليس لنشر الفساد والرذيلة. وقد صاغ الشاعر أفكارا تلمس من خلالها غيرة الشاعر الصادقة والقوية على دينه، وعلى الأخلاق الفاضلة، مما جعل قصيدته قريبة في أسلوبها الخطابي المباشر من أسلوب الخطبة لاحتوائها على المواعظ والعبر، ولاستخدامه الأسلوب الإنشائي وأدواته في القصيدة إذ يقول واصفا ما يجري في المقابر من انحراف في قوله:

ربّ يوم إلى زيارة قبر	ذهبت إمراة كساها الحياء
فإذا ساحة القبور كسوق	من رجال كثيرهم سفهاء
قبّح الله من عوائد قوم	ملتقى للرجال فيه نساء
وتعدت من العصاة عيون	طلبت أعينا عماها البكاء
جاءت الناس لا تعاظ ولكن	شغلتهن مكانة العذراء ⁴⁴

ويواصل الشاعر وصفه لما شاهده هناك من مظاهر انحراف الأخلاق، وما حدث له شخصياً متأسفاً مستذكراً ذلك إذ يقول:

نظرت امرأة إليّ فنضت	ما ارتدت إذ مرادها الفحشاء
كشفت لي حبالها وبهذا	أظهرت غفلةً ومنها اعتداء
بان لي الأمر والتغافل ممن	تاجروا في القبور وهو البلاء
موعد للفسق وأحزنناه اتـ	خذت في زماننا الأولياء
عمّ ضرّ الفساد تحت عيون الـ	ناس حتى رضت به الفضلاء
وهو سخط الإله حيث رأينا	ه فلم تنتبه له الحكماء
أين صار العفاف منّا مع الغيـ	رة إن كان في الفجور الهناء ⁴⁵

وهكذا نلاحظ سخط الشاعر الإصلاحى وثورته على كل ما يؤدى إلى الانحراف حتى ولو كان ذلك زيارة المقابر التي هي في الأصل مدعاة للانعاط وإصلاح النفس.

كما يتضح اهتمام الشاعر الإصلاحى الدائم بالإصلاح والتوجيه والبحث عن الحل لهذه الظاهرة السلبية، فهذا أحمد الغوامي في قصيدته "مجد البنت في تربيتها" يؤكد على أهمية تربية البنت و تهذيبها لأنها أم المستقبل، وأم النشء الذي سوف يتلقى التربية على يديها، داعياً البنت الجزائرية إلى استرداد فخار الجدود، والمحافظة على الدين و الأخلاق حتى ينشأ الجيل الجديد حراً قوياً، مؤكداً على الأخلاق ودورها في البناء الحضارى للأمم إذ يقول:

يا بنت هذا الشهود	عليك كل العهود
ردى إلينا زمانا	مضى بفخر السعود
بنت الجزائر ردى	لنا فخار الجدود
أخلاقك اليوم ضاعت	فهل لها من معيد
جودي علينا بخلق	مطهر للوجود
فينشأ الجيل حرا	وينتهي للخلود

خاتمة:

وبهذا نخلص إلى القول بأن ظاهرة انحراف المرأة الديني والأخلاقي في المجتمع الجزائري كانت منتشرة وأسبابه مختلفة: منها ما تعلقت أسبابه بالمستعمر وأتباعه، ومنها ما يعود إلى ما ساد المجتمع من بدع وعادات وتقاليده ما أنزل الله بها من سلطان، ومنها ما يرجع إلى الجهل المركب الذي أطبق عقول الرجال والنساء.

ويتضح ذلك جليا من خلال النصوص الشعرية التي أوردناها، التي تؤكد أن الشاعر الإصلاحي كان يترصد كل الظواهر السلبية في المجتمع الجزائري خلال فترة الاحتلال بالكشف والتعرية، كما كان يحاول أيضا بالنظر إلى دوره الإصلاحي في المجتمع تقويم وتوجيه مثل هذه الظواهر السلبية إلى الصواب حتى تزول وتتدثر من الواقع، مما جعل الخطاب الشعري يغلب عليه طابع التقرير والخطابة المباشرة ينزع إلى الموعظة والإرشاد تبليغا للرسالة الإصلاحية.

وقد خلص الشاعر الإصلاحي إلى أن الحل لمثل هذه الانحرافات الاجتماعية خاصة تلك التي تمس العقيدة يكمن في الدعوة إلى تعليم وتربية البنت منذ الصغر، حتى تحصن نفسها منها، لأنها ستكون في المستقبل الأم، وهي المدرسة الأولى التي ستكون الأجيال القادمة، و ذلك لن يتأتى لها إلا بتعليم وتنقيف المرأة تعليما صحيحا مبني على أسس متينة من منابع القرآن والسنة النبوية بعيدا عن كل الخرافات والبدع مما يؤهلها بعد ذلك لفهم حقيقة الدين والحياة .

— الهوامش: —

1. ALI MERAD, 1967, Le REFORMISME MUSULMAN EN ALGERIE DE, 1925 –a 1940, Paris, p9.
2. ALI Merad, op cit, p58.
3. القانون الأساسي لهذه الجمعية في سجل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الذي طبع في المطبعة الجزائرية الإسلامية، قسنطينة، 1937.
4. محمد الطاهر فضلاء، دائم النهضة الوطنية الجزائرية، "حديث مفصل عن برنامج الجمعية وروادها، وتراثها"، (ط1، دار البعث، قسنطينة)، 69-95.
5. د. محمد ناصر، المقالة الصحفية الجزائرية، (المجلد الأول، (ش.و.ن.ت)، الجزائر 1978م)، ص83.
6. أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، ص338.
7. ALI MERAD, OP CIT, P58.
8. أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، ص351-352.
9. البشير الإبراهيمي، سجل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (ط2، دار الكتب، الجزائر، 1982)، ص62.
10. د. محمد ناصر، المقالة الصحفية الجزائرية، ص112-136-229.
11. السعيد الزواوي، المرأة المسلمة في الجزائر، مجلة الشهاب، ج5، 8 أكتوبر 1929، ص11.
12. توجد كنيسة "سيدتنا الإفريقية"، في الجزائر العاصمة ببولوجين، في حي يسمى "بالسيدة الإفريقية" حيث كان يقيم بها الآباء البيض، وفي كل يوم أحد كانت النساء يأتين لزيارتها ولشراء شموع لالا مريم العذراء، تبركا بها حسب زعمهن، فهي تجلب لهن الحظ.
13. توفيق المدني، كتاب الجزائر، ص351-352.
14. د. محمد ناصر، المقالة الصحفية الجزائرية، ص112-136.
15. الطيب العقبي، "لحي الله أهل الغي"، جريدة البرق، عدد 12، 23 ماي 1927، ص3.
16. المصدر نفسه، ص3.
17. محمد الهادي الزاهري، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، (ج1، تونس، 1926)، ص114-118.
18. المصدر نفسه، ص50-55.
19. 20. المصدر نفسه، ص69.
21. محمد السعيد الزاهري، "إلى الزعيم المصلحين"، جريدة الشهاب، العدد 13، 79 جانفي 1927، ص14-15.
22. د. محمد ناصر، المقالة الصحفية الجزائرية، ص124.
23. محمد الطاهر فضلاء، دعائم النهضة الوطنية الجزائرية، (دار البعث للطباعة والنشر قسنطينة، 1984)، ص70.
24. محمد دبوز، نهضة الجزائر وثورتها المباركة، (ط1، المطبعة التعاونية، 1965)، ص25.

- 26.25. د.مصطفى خالدي وعمر فروخ، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، (ط4، المكتبة
العصرية، بيروت، 1970)، ص203.
27. المرجع نفسه، ص203-205
28. المرجع نفسه، يضاف إليه أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، ص61
29. د.محمد ناصر، " المقالة الصحفية "، الجزء1، ص 137- 153
- 31.30. محمد العيد، الديوان، (ش.و.ن.ت)، ص، 108
- 34.33.32. حسن حموتن، البصائر، العدد111، 13مارس1950، ص6
- 35.د.محمد ناصر، المقالة الصحفية، ج1، ص681
36. عبد الكريم العقون، مسجد عظم به من مسجد، البصائر، العدد21، 27 ماي 1954، ص6
37. التبشير الإبراهيمي، عيون البصائر، (ش.و.ن.ت)، الجزائر، 1971، ص65
38. د.محمد ناصر، المقالة الصحفية، ج1، ص205-206
39. د.محمد ناصر، المقالة الصحفية، ص214-216
- 41.40. محمد العيد، جريدة النجاح، العدد218، بتاريخ 24 جويلية1925
42. محمد العيد، الديوان، (ش.و.ن.ت)، ص177-178
43. محمد العيد، الديوان، ص 279
44. هذا الشاعر لم يصرح باسمه، أمضى القصيدة بـ: (زائر ضريح معتبر بالجزائر).
- 46.45. شاعر مجهول، جريدة النجاح، العدد936، 17 ماي 1930م، ص7
47. أحمد الغوالمي، جريدة الشعلة، العدد21، 50 ديسمبر 1950